إثراء
المعارف الرقمية

بريد الجمعة

■ ٢٧ يونيو ٢٠٠٠ ■

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

الليالي المظلمة!

أنا شاب في السادسة والعشرين من عمري أعاني مشكلة تؤرقني بشدة، وكم رغبت في الكتابة إليك عنها لالتمس منك النصح والإرشاد، ولكنني كنت أتكاسل أو أحجم إلى أن قرأت رسالة «الأبواب المغلقة» للفتاة التي أغلقت قلبها دون أبيها لتركه لها بعد طلاقه من أمها دون أن يتحمل أي مسئولية عن تربيتها إلى أن أصبحت تمتلئ عليه الآن حتى بمشاعر الكراهية، وتتمنى موته لتستريح من تأنيب الضمير لها بسبب مشاعرها العدائية تجاه أبيها. كما قرأت ردك عليها وتوقفت كثيراً عند الجملة التي تقول فيها «إن هذا القدر الهائل من مشاعر الكراهية التي تحملها لأبيها يحول بينها وبين السلام النفسي والتواصل السليم مع الحياة» والحق أن مشكلتي مختلفة بعض الشيء عن مشكلتها ولا تقارن بما حدث مع هذه الفتاة، ولكن نتائجها بداخلي اتخذت نفس الاتجاه الذي أثمرته مشكلتها في نفسها. فأنا من أسرة من الأسر التي يطلق عليها المجتمع أنها راقية اجتماعياً ومادياً أيضاً، وبرغم هذا الرقي الاجتماعي والعلمي والمادي فإنك لا تشعر بذلك إذا اقتربت من أبي بشدة، فهو أب غليظ القلب مع أبنائه، وخاصة معي أنا الابن الأكبر، ومنذ طفولتي المبكرة وأنا أعاني قسوته الشديدة على بحجة تعليمي وتربيتي، حيث ربيت على الضرب والإهانة الشديدة لأنني ضعيف في تحصيلي الدراسي ولا أركز، والحق أنني فعلاً في مراحل الدراسة الأولى كنت شارد الذهن دائماً ولا أدري لذلك سبباً، وفي المرحلة الابتدائية كان أبي يجلس معي يومياً بالساعات المتصلة يذاكر لي، والحق أنه هو الذي كان يذاكر ولست أنا، فنادراً ما كنت أفهم أو أستوعب ما يقوله، وبالطبع كانت كل ليلة تنتهي بنهاية درامية مأساوية بعلقة ساخنة وأنام ليلتي باكياً من شدة ما ألمّ بي، وفي أحيان كثيرة كانت أمي تتدخل لفض النزاع، ولكن أبي لم يكن ليتوقف إلا عندما يحس بالتعب من كثرة ما استخدم يديه ورجليه ورأسه وحذاءه في ضربي وركلي ولطمي بشدة في كل أنحاء جسدي الصغير، وبعد أن أكون أنا أيضاً قد بح صوتي من البكاء، وعلى وشك الإغماء، وكل ذلك لما لا ذنب لي فيه من عدم القدرة على الاستيعاب أو التركيز وأنا طفل في أولى مراحل التعليم وقليل الحيلة، وهكذا كانت المأساة تتكرر يومياً ليس فقط بسبب عدم الاستيعاب أو التحصيل الدراسي ولكن لأي خطأ يحدث يكون نتيجته كسر كوب أو تلف أي جزء من أثاث البيت فأمسيت لياليّ كلها سوداء مظلمة حتى تمنيت الموت وأنا طفل صغير، وكان مما ضاعف من عذابي أننا كنا في غربة وفي بلد ليست هناك لغة للحوار فيه مع أهله، فقد كانت دائماً هناك فجوة كبيرة بيني وبين زملائي وأقراني في المدرسة من أهل البلد، ووسط هذه الظروف كان أبي وأمي يعملان في الغربة على فترتين صباحية ومسائية، وأنا وأخي محبوسان دائماً لا نخرج إلا للمدرسة أو في أوقات قليلة مع أبي وأمي للتسوق، وطبعاً كل ما كان يهم أبي هو إطعامنا فقط أما المشاعر والصداقة فهي الرفاهية بعينها، فلا مزاح ولا ضحك وإنما هم وغم وسخرية لا أول لها ولا آخر، فمزاحه معنا هو سخريته منا وانتقاصه لنا، وكم حاولت معه أمي أن يعدل من طباعه ويجعلها أكثر لينا ولكن دون فائدة، فلا رأي يعلو رأيه كثيراً لأن الجميع من وجهة نظره لا خبرة لهم بالحياة ولا يفقهون شيئاً، وفي هذا الجو المشحون بالقسوة والغرور أصبحت أقسو أنا بدوري على أخي الصغير رغم حبي له، ولم تكن تسنح لي فرصة للشجار معه إلا وأذقته ما أذاقني أبي من الضرب والإهانة.

وقد استمر أبي في إيذائه لي بدنياً ونفسياً حتى دخلت الكلية وهي كلية عملية محترمة لكنها لم تكن على هواه، وبالتالي سنحت له الفرصة لإشعاري بالفشل وأثر ذلك كثيراً على مستواي في الكلية فكنت أنجح بصعوبة بعد أن أصبحت أكره المذاكرة بشدة لأنها تذكرني بأبي، وبرغم ذلك فقد كنت أغالب نفسي أحياناً وأتفوق في بعض سنوات الدراسة سواء قبل الجامعة أو بعدها، وحين كنت طفلا أبيت كل ليلة باكيا بعد أن يقسو عليّ أبي، كنت أستيقظ في اليوم التالي وأقابل أبي ببراءة الأطفال وقد نسيت قسوته عليّ وشدته معي وربما ضحكت في وجهه ببراءة وهكذا استمرت سياسة الضرب من أبي والصفح والنسيان مني لسنوات حتى بدأت نفسي تتغير تدريجيا تجاهه وبدأت أحمل له في داخلي بذور الكراهية خصوصاً بعد أن بدأت تتشكل ملامح شخصيتي وهي الجبن والخوف والانطواء، وعدم القدرة على مواجهة الناس، وأصبحت لا أطيق ضعفي وهواني وذلي، كما أصبحت أسيراً لأحلام اليقظة وأحيانا أسيرا لأفكار إجرامية ملكت عليّ عقلي، ولم أعد أطيق أن يأمرني أبي بفعل شيء، وبالرغم من أن أبي قد امتنع منذ فترة عن إيذائي بدنيا إلا أنه لم يكن يتورع عن إيذائي نفسيا وربما أمام أصدقائي أيضاً

والآن فقد تخرجت في كليتي وعملت بإحدى شركات القطاع الخاص، وأريد الزواج من فتاة أحبها وهي على خلق ودين ومن أسرة محترمة، وقد حدثت أمي عنها فطلبت مني أن أنتظر قليلاً حتى تفاتح أبي في هذا الموضوع، وتسأل عن الفتاة وكانت النتيجة في مصلحة الفتاة فهي حقا فتاة طيبة وعلى خلق ودين ومن أسرة محترمة وطيبة وشهادتها الجامعية تقارب شهادتي ومن نفس بلدي، ولكني للأسف لن أتزوجها، هل تعرف لماذا؟ لأن أسرتها أقل من أسرتي اجتماعياً ومادياً، فهل أترك فتاة يميل إليها قلبي وشهد الجميع لها ولأسرتها بالدين والخلق لأن أهلها ليسوا من أصحاب الألقاب اللامعة؟

وكيف يتحقق هذا السلام النفسي الذي تتحدث عنه وكيف أتواصل مع الحياة بطريقة سليمة؟ وكيف أغالب نفسي تجاه هذا الشعور المؤسف تجاهه؟

وهل أتخلي عن هذه الفتاة وأضيف إلى نفسي محنة جديدة؟ أم أستمسك بها حتى ترضى أمي ويرضى أبي؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أخطأ والدك بلاشك في قسوته عليك في طفولتك وصباك وبواكير شبابك.. وفي اعتماده لسياسة القسوة المفرطة معك والإيذاء البدني والمعنوي لك بلا تبصر ولا اعتدال لكن أخطاء الآباء في تعاملهم مع أبنائهم تتفاوت درجاتها وتختلف دوافعها في كثير من الأحيان، وهناك فوارق كبيرة بين خطأ ينبع من الاهتمام الشديد بأمر الأبناء مع سوء اختيار الوسيلة للتعبير عن هذا الاهتمام، وبين خطأ يصدر عن الاستهتار بحقوق الأبناء على الأب.. أو النكوص عن القيام بالواجب الإنساني تجاههم كما هو الحال في ظروف كاتبة رسالة «الأبواب المغلقة» التي تخلى والدها عن مسئوليته عنها منذ الصغر، فحفر في أعماقها أثراً لم تستطع الأيام محوه.

فإذا كان الأب قد تحمل مسئولياته الإنسانية والأدبية عن أبنائه بشرف ولم ينكص عن أداء الواجب الإنساني تجاههم، لكنه أخطأ الوسيلة فلقد يشفع له ذلك في التسامح مع خطئه.. والتجاوز عنه، حتى ولو ترسبت في النفس بعض المرارة من أثر ذكريات الليالي المظلمة في الطفولة والصبا، والقسوة المفرطة مع الأبناء أمر مرفوض تربويا ودينيا وإنسانيا وبكل المعايير، وهي نوع من التعسف في استخدام السلطة الأبوية على الأبناء، يذكرنا بما حذر منه المفكر الفرنسي الكبير مونتسكيو، بقوله: «عبرة أزلية أن كل رجل يحوز سلطة مطلقة يميل إلى التعسف فيها»، ومع أنه يتحدث في ذلك، عن السلطة بمفهومها السياسي، إلا أن العبارة تنطبق كذلك على العلاقات الإنسانية وعلى علاقة الآباء بالأبناء أيضاً، ذلك أن الأب إنما يملك في الحقيقة سلطة مطلقة على أبنائه الصغار الضعفاء الذين يخضعون لولايته ويعيشون في كنفه ويعتمدون عليه في حياتهم، وليس هناك من عاصم يحميهم من هذا الميل شبه الغريزي للتعسف في استخدام مثل هذه السلطة المطلقة معهم سوى ما غرسه الله سبحانه وتعالى في قلوب الآباء من الرحمة بأبنائهم.. وما حثنا عليه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه من الرفق بالضعفاء، منبها أن الله سبحانه وتعالى يحب الرفق في الأمر كله، ويكفي دليلا على سوء عاقبة القسوة في التعامل مع الأبناء ما تقوله أنت نفسك من أن معالم شخصيتك قد تشكلت بسبب قسوة الأب عليك فاتسمت بالجبن والخوف والانطواء والعجز عن مواجهة الناس، بل وما تقوله أنت كذلك من أنك قد اكتسبت . كرد فعل لهذه القسوة . شيئا من السادية في تعاملك مع شقيقك الأصغر، فرحت تنفس فيه بعض ما كابدته من عنف أبيك وقسوته وإيذائه لك، غير أن كل ذلك قد انطوت صفحته من حياتك الآن ولم يعد يبرر لك أن تحمل لأبيك وأنت في سن الشباب مثل هذه المشاعر الكريهة، ولا أن تجافيه وتقاطعه إنسانياً كما تفعل حالياً. فلقد انقضت مرحلة الإيذاء البدني وذكرياتها المريرة.. ولم يعد والدك يستحق منك الآن سوى التجاوز عن أخطائه القديمة وتأويلها برغبته الصادقة في تنشئتك التنشئة القويمة وحمايتك من الفشل الدراسي والتعثر، حتى ولو كان قد أخطأ التعبير عن هذه الرغبة. وكثيرون من الناجحين في الحياة تعرضوا في طفولتهم وصباهم لصور مماثلة من هذه القسوة، فلم يسمحوا لها بعد أن شبوا عن الطوق وأدركوا حقائق الحياة، بأن تفسد عليهم مشاعرهم تجاه آبائهم، وإنما تجاوزوا مراراتهم وحققوا نجاحهم في الحياة وأقاموا أسرهم الصغيرة فنشأوا أبناءهم على الحب والعطف والتراحم.. وحموهم مما تعرضوا هم له في طفولتهم وصباهم، وقال قائلهم: ليس في صدري لمن أحبني سوى الحب.. ولمن آذاني سوى الإشفاق!

واتبعوا نهج الأمبراطور الروماني الحكيم مرقس أوريليوس الذي قال: «خير وسيلة للانتقام ممن أساءوا إلينا هو ألا نصبح مثلهم»، فافعل أنت أيضاً ذلك أيها الشاب.. وطهر قلبك وصدرك من المشاعر السلبية تجاه أبيك طلبا للسلام النفسي والتواصل السليم مع الحياة.. وتخلص من بصمات القسوة القديمة على شخصيتك فاعرف كيف تدافع عن اختياراتك في الحياة وكيف تقنع بها من يختلفون معك في الرأي حولها فإذا كنت مقتنعا حقا بصلاحية الفتاة التي تحبها فثابر على إقناع أبويك بها إلى أن يتبصرا وجهة نظرك ويتنازلا عن اعتراضهما عليها.. ولن يتحقق لك ذلك إلا إذا تطهرت أولاً من مشاعرك الكريهة تجاه أبيك التي تحول بينك وبين التواصل معه.. ومع الحياة بصفة عامة بشكل سليم.